ضابط الإيقاع

جارى الذى يقطن الشقة التى أطل عليها فى البيت المقابل لمغنانا رجل وسيم الطلعة ، ضامر العود ، بائن الطول ، فهو فى مظهره هذا ، ولا غرو ، صنو الأسبانى دونكشوت بعثته الأسطورة من بين دفتيها ، ممتشقاً ، عوضاً عن السيف والرمح ، عصا رشيقة يتكئ عليها ، ومذبة خصيبة يهش بها على هوام الطريق .

لقد تخطى جارى ، بفضل الله ، عامه الأربعين دون أن ينبه ذكره ، ويتألق نجمه ، وقد طوف مبكراً بأبواب الوظائف يطرقها ، بعد أن أقصته معاهد الدرس ، ولما ينهل من أفاويق العلم ، نهلة ظامئ .

وأصبح ذات يوم ، حبيس حجرة بالطبقة الأرضية من مبنى حكومى مضعضع ، ليس فيها بصيص من نهار ، يضيئها مصباح شحيح عكر ، وفى أرجائها تتكدس أضاميم منتفخة ، وأضابير تربة ، وكل إليه تنظيمها وتصنيفها وضبط ما حوته

obeikandl.com

obeikandl.com

من آلات الطرب والرصد والتدوين حتى تمكنه إن هى شدت فى محرابها ، من معاشرة الأنغام أجل معاشرة ، ومن ثم تطاولت من « كعبة الإلهام » أسلاك كهربية ، زاهية اللون ، تحوّت فى الردهات بعودها اللولبى ، ملتحمة بمضخمات للصوت ، زانت جنبات الشقة بوجهها الأجرد المصقول ، لتهدى إلى جارى الأصوات ، أينما حل ، فى سهولة ويسر .

فكان يتراءى فى المستشرف الرحيب ، عند الأصيل ، على مقعده الأثير ، وبين يديه قدح القهوة يرشف منه كأنما يشيع قرص الشمس وقد تمايل فى الأفق منحدراً إلى مغيب ، على رنين الألحان الخوالد ، تتناهى إليه من « كعبة الإلهام » وكأنه كاهن مصر الأعظم يزف إلى « رع » رب الأرباب ، أناشيد الكهنة ، وتسابيح العابدين .

إن نزعات جارى كما تشهد بسيطة هينة ، وعلى الرغم من هذه البساطة الوادعة ، لم آلفه إلا دائم الشحوب ، محنى الهامة ، مكفهر الوجه ، لا تفارق فمه بسمة يائسة ، تنم عن نفس حزينة ، تختزن شجاها كما يختزن الإناء بخار الماء الفوار .

وإن أنت فتشت فى حياة الرجل ، هدتك فطنتك ، دون مواربة وعناء ، إلى خط ممدود ، لا يتنكب عنه جارى

ولا يحيد ، فإن متعتْ الشمس ، ولاح النهار ، ألفيت باب شقته ينفرج عنه ؛ أبرز ما فيه بزة أنيقة ، وبنيقة منشاة طوقت عنقه ، يطيف بها رباط للرقبة ، هادئ اللون ، أحكم عقدته ، فبرزت تحتل وسط البنيقة ، فى تأنق ، مضفية عليه مزاجاً من وسامة وبهاء .

ويتوخى جارى الطريق ، فى خطا وئيدة ، متباعداً عن الزحمة ، يتوكأ على عصاه ذات المقبض العاجى المفضض ، وعلى فوديه يستوى طربوش زاهى اللون ، على حين تتشاغل يسراه بمذبته ذات الذيل الخصيب يلوح بها عن يمين وشمال .

وما إن ينتصف النهار ، وينقضى وقت العمل ، حتى يتلقاه الحى مع حشد العائدين ، فلا يلبث أن ينغلق عليه باب شقته لا يريمها حتى يحين صباح ، فلا أجد سوى النافذة أتطلع منها إليه ، إذ دأب الرجل على أن يدع مصراع نافذته مفتوحاً ، ليستقبل بريق النهار ، فإن اتفق له أن لمحنى وهو منصرف إلى بعض شواغله المنزلية يصرفها ، توقف يبتسم ويحيينى بانحناءة من رأسه دون أن يجرى بيننا حديث ، فلا يسعنى إلا أن أبادله الابتسام وأن أرد التحية بمثلها ، ولا أعتم أن أرتد عن النافذة فى استحياء .

وسرعان ما تترسل على سمعى أصداء شجية لألحان رشيقة ، تجتذبنى إلى النافذة ، محركة منى كوامن الشجون والأحاسيس ، فأستلقى على مقعد مجنح وثير ، أتسمع النغم فى نشوة وشغف ، وأنظارى فى شقة جارى هائمة ترصده ، فإذا هو مسترخ على متكأ عريض ، يجتذب الدخان من غليونه ، وبين يديه كتاب يطالعه ، وقد أخلد إلى سكينة يساير الألحان فى لذة واستمتاع .

على هذه الوتيرة كان جارى يختم أمسيته بل أماسيه ، التى طالما شاطرته إياها .

وشدما كنت تواقاً إلى أن تربطنى بجارى هذا أواصر تعارف ومودة ، فأنا به معجب ، فلا يفوتك أنى ما زلت فى شرخ الشباب ، يستهوينى كل ما فيه تألق وبريق ، ولا يغرب عنك أننى بالموسيقى جد مشغوف ، أوطد العزم أن أقتحم ميدانها أثبت فيه قدمى ، وأفوز منه بمكان مرموق .

ويوماً مثلت إلى النافذة ، وفى يدى مزمار ، أنا حديث عهد به ، أتدرب على النفخ فيه ، مشغولا بالنص الموسيقى ، أفك منه رموزاً وطلاسم ، تناثرت بين سطورها حَصَيات تغص بها عينى .

وباغتنى صوت رخيم يهمس لى فى تودد :

ما شاء الله . . . ما شاء الله .

ورفعت رأسى ، منحياً المزمار عن شفتى ، أتبين ، فابتدرنى جارى ، من نافذته ، بسؤاله :

أمغرم أنت بالموسيقى إلى هذا الحد يا عزيزى ؟

وأجبته على الفور ، تشوب صوتى مسحة الخجل :

كل الإغرام يا سيدى .

ــ أطال عهدك بالتدرب على النفخ فى المزمار الذى بين يديك؟

ــ إنى بالمزمار حديث عهد يا سيدى . . . لا أحسن الصفير بعد .

ــ أتجد التدرب عليه صعباً عسيراً ؟

ــ أصعب وأعسر مما تخيلت وحسبت .

وتوقف عن الكلام ، يتلاعب بغليونه وكأنه يدبر أمراً ، ثم نطق فى صوته المنغم يقول :

ألك رغبة فى حضور حفل موسيقى ، تشهد فيه كيف يساس المزمار ، وكيف يغرد تغريده الشجى ؟

فتشاغلت بالمزمار ، أوارى استحيائى ، ووقفت حائراً لا أنطق ، فسمعته يقول فى تعاطف ولين :

لم تجب عن سؤالى . . . أبك رغبة فى حضور الحفل ؟

فبرقت عيناى وأنا أجيبه :

كل الرغبة يا سيدى .

ــ ما رأيك إن أنا دعوتك إلى الحفل بعد غد . . . أ أطمع فى صحبتك والائتناس بك ؟

ــ عفواً يا سيدى . . . بل أنا المتشرف بما تدعونى إليه .

ــ سأدعوك ، ولكن لى عليك شرط .

فتطلعت إليه والبغتة تعقد لسانى ، أقول :

وما الشرط يا سيدى ؟

أن تكف عن مخاطبتى على هذا النحو من التحفظ والكلفة .

ــ إرادتك يا سى . . .

وأسكتنى بإشارة من يده ، ثم قال فى تضاحك ، وهو يمط شفتيه :

ــ لقد تم الاتفاق . . . أليس كذلك ؟ . . . لنا لقاء بعد غد . . . سعدت أمسيتك .

ثم أومأ برأسه إيماءته المألوفة ، وتباعد عن النافذة ، تغيبه خطاه ، على حين أقبلت على المزمار أحتضنه فى تودد ، وأتواثب من فرح ، متطلق الأسارير .

ولما أخذ الجهد منى ، ارتميت على المقعد مبهور الأنفاس ، وما عتمت شفتاى أن التحمتا بالمزمار ، فانبعث منه صفير مهوش ، يعربد فى الحجرة ، وكأنه صيحات الصبية وهم منصرفون إلى عبثهم يمرحون .

وحل موعد الحفل .

وبرزنا أنا وصديقى الجار إلى المسرح الكبير .

وضمنا الصف الأول إليه ، نحتل منه أكرم مقام ، فلا يعوق المسرح عن أنظارنا عائق .

وانصرف صديقى يرقب الموسيقيين على منصة المسرح ، وقد تشاغل كل منهم بمعزفه يتفحصه ويضبطه ، ويعده الإعداد التام ، ريثما يبدأ العزف ، فاضطربت القاعة بدندنات سقيمة ، تفتقر إلى يد حازمة تتحكم فى فوضاها ، وتحسم ما سادها من تنافر وشقاق .

ويطن فى البهو صليل جرس .

وتتخافت الأنوار وتنكمش .

ويندلع من أقصى القاعة نور باهر ، وإذا هو يهبط نسجاً من الأشعة على المسرح ، كأنه قرص الشمس الوهاج يلقى على الكون تحية الإصباح ، فتتبدى منصة

المسرح ماسة فريدة تضوئ وتتألق .

ولا ينقضى بنا كبير وقت حتى ينفرج نسج الأشعة عن « ضابط الإيقاع » يفرق سبيله بين مقاعد العازفين ، تهديه خطاه النشيطة إلى منصة القيادة ، متأنقاً فى لباس السهرة ، فانبرى صديقى يضرب كفيه فى حماس ، ولم تلبث أن ضجت القاعة فى إثره بعاصفة من تصفيق ، فانحنى القائد من فوق منصته انحناءة رشيقة ، يرد بها التحية ، ثم اعتدل يواجه حشد العازفين ، ترتفع يمينه بعصا القيادة ، فتعلقت به أنظار الموسيقيين ، تنتظر الأمر منه فى انتباه ، على حين انصرف هو إلى أوراقه يجرى عليها عينيه ، ويجمع فى رأسه شوارد النغم .

ويسود القاعة سكون سابغ .

وتصدر من القائد الإشارة ، وتتحرك الآلات ملبية النداء ، وتسيل الأنغام محكمة البنيان يؤازر بعضها بعضاً فى تآلف وتعاطف وانسجام .

ولا يفتأ جارى الصديق مشدوداً إلى مقعده ، تنعقد أنظاره بعصا القيادة وهى غادية رائحة بين الآلات توقظ تلك وتنيم تلك ، آناً هى ثائرة تستصرخ الصنوج ، وتقرع الطبول ، وتعنف بالأصوات فى صلصلة وقعقعة وضجيج ، كأنما الرعود

تصطفق ، وآناً هى مسالمة تجنح إلى تلاطف وتعاطف ولين ، فترق الألحان وتخف ، كأنها وسوسة الماء أو همسات النسيم ، تنساب بين الخمائل والمروج ، فيشدو الكمان بصوته الحنون ، ينفى فى عذوبة لحنه ، عصف الرياح ، واصطفاق الرعود .

ولا يفوتك أن تأخذ ضابط الأنغام ، من فوق منصته ، لا يستقر ولا يهدأ ، يشرئب ويتقاصر ، يثور ويموج ، يسالم ويلاين وفق ما تمليه الألحان .

وعرضت منى التفاتة إلى جارى الصديق ، فألفيته يتطلع إلى « ضابط الإيقاع » تطلع الوثنى إلى صنمه المعبود فى إكبار وخشوع ، ويده تحاكى تلويحات عصا القيادة مطاوعة فى طرب إيقاع النغم ، وقد التمعت عيناه ، وتورد خداه ، فتلاشى شحوبه المألوف ، ونضح محياه بالبشر والإشراق .

وما إن انتهى العزف الختامى حتى انبعث جارى يضج بالتصفيق ملوحاً بيديه ، ويصيح فى اهتياج صيحات المديح والثناء .

وزايلنا القاعة إلى بهو المسرح الكبير نستمرئ صدى الألحان ، ومال علىّ ، ونحن فى منصرفنا ، يقول والحماس باد عليه :

البرنامج رائع . . . والأداء أروع . . . أما « ضابط

الإيقاع » فإنه ، حفظه الله ، قد استنبط نزعات المؤلف ومقاصده ، فساس الألحان عن فهم عميق ، ودراية واسعة ، جعلته ، ولا ريب ، يكفل سمو الإنشاد وبراعة الشدو .

وامتد الحديث بيننا وتشعب ، حتى إننا لم نشعر بوحشة الطريق فى مثل هذه الساعة الواغلة من الليل ، وشارفنا الحى الذى نسكنه ، فشد صديقى الجار على يدى ونحن نفترق ، يقول :

الحديث له بقية . . . أنا فى انتظارك عصر غد . . . عندى . . . فى شقتى . . . سوف أسمعك من روائع الألحان ما يطربك . . . هيا ، لقد تأخر بنا الوقت . . . لا أريد أن أثقل عليك . . . إلى غد .

وفى أصيل الغد ، مثلت فى « كعبة الإلهام » أطوف بها مؤتنساً بما ضمته إليها من طرف وألطاف . وراعنى فيما راعنى ، عصا للقيادة ، رقدت بعودها المشيق على حامل معدنى دقيق ، فوق مائدة مستديرة ، تحف بها دمى من الخزف ، تمثل حشد الموسيقيين فى جوقة متكاملة العدة والعتاد ، يتوسطهم مصطف موسيقى ، لمقطوعة مأنوسة .

فوقفت أزجى إعجابى لجارى الصديق ، مطرياً فيه حسن الإخراج ، فاضطرب فى وقفته ، وانكب على عصا القيادة ينزعها

عن حاملها المعدنى ، وأمسك بها يضغط عليها فى رفق ، متشاغلا بها ، ثم أقبل على الدمى الخزفية يرعاها فى نظرة حانية وهو يغمغم :

هذه هى دنياى يا عزيزى الصديق . . . دنيا الأنغام والألحان . . . إنها فى هذه الصور المتواضعة تحقق حلم حياتى العريض .

فقلت له يملؤنى الإعجاب والتحمس :

يا له من عالم عزيز علىّ . . . محبب إلىّ !

وتنهد صديقى الجار تنهدة جياشة ، وهو يتابع قوله راعش الصوت :

لقد عشقت أنا الآخر هذا العالم الرحيب ، ووددت أن أصبح فيه علماً من أعلامه النابهين .

— وما الذى حجبك عنه ؟

— أبى يا عزيزى الصديق . . . ما كاد ، سامحه الله وعفا عنه ، يقف على رغبتى فى الالتحاق بمعهد الموسيقى ، أستكمل فيه دراستى العالية ، حتى استشاط غضباً يكرهنى على إذعان وسكوت ، على حين أخذ يرسم لى الطريق الذى وجب علىّ أن أسلكه ، ويشق آفاق حياتى ، فيرانى طبيباً مرموق القدر ، يشار إليه إشارة السمو والإكبار . . . أما أن أصبح صانع

أنغام فهذا ، على حسب حدسه ، مضلة وغواية ، معبثة وخسارة وضياع ، لن يرتضيها لى مهنة يتبناها ويباركها . . . وطال بنا النقاش وتشعب . . . وأخيراً احتد بنا الجدل يجرنا إلى مفاصلة وفراق . . . فأخليت له وجه البيت ، ورحلت إلى عمة لى ، أثق بها ، أطلب عندها الطمأنينة والعون . . . فطيبت خاطرى ، وكانت رقيقة القلب عطوفاً . . . ووعدتنى ، فى فيض من إعزاز ومحبة ، التوسط لدى أبى . . . ولما سمع لها ، علا صوته مهدداً إياها بقطيعة وشقاق إن هى لم تكف عن هذا الهراء المقيت . . . وأقسم ، وما أغلظ قسمه ، إنه لن يرضى عنى ، ولن يقبلنى تحت سقفه طالما تردد له فى الحياة أنفاس ، وإن سعيت أسف التراب عند قدميه . . . ورجعت عمتى من لدنه مبتئسة تسح دمع الخيبة والإخفاق ، وتدعونى إلى تجلد وصبر . . . وضاقت بى رحاب الحياة . . . فانقطعت عن الدرس متذمراً ، أرفع راية العصيان ، وانبريت أواصل الحياة ، وأتكسب العيش ، دون أن تمتد يدى إلى معونة أحد .

والتحقت بالحكومة ، أضرب فى مجاهلها ، كأنى جواب آفاق ، أخطأ الطريق المرسوم ، فتاهت به خطاه فى أحراج غير مطروقة ، فتناساه الناس ، حتى تناسى نفسه هو الآخر ،

فلازم يأسه ، وانقطع عن الحياة يستمرئ العزلة والتفرد ، مستكملا فى تعثر ، ما تبقى له من أيام . . . وما إن توافرت لدىّ بقية من مال حتى عكفت على « كعبة الإلهام » أشيدها مثابة أتصيد فيها لحن حياتى الضائع ، ومناحة أسكب فيها الدمع على حلمى العريض الذى وسده أبى التراب فى عناد .

وانقطع جارى الصديق عن إنشاده ، يزدرد ريقه ، وكأن حنجرته شرقت بالعبارات ، فسعل يواصل حديثه ، مبهور النبرة ، متقطع الأنفاس ، وهو يتقدم من المائدة المستديرة ، يعيد عصا القيادة إلى حاملها المعدنى ، وقد ران عليه تخاذل وشحوب ، وسمعته يقول خافض الصوت :

مالى أرانى أحدثك هذا الحديث الكدر . . . هيا بنا إلى المستشرف . . . الشاى معدّ . . . أخشى أن يكون قد برد لطول الانتظار .

وضمنا المستشرف تحتسى أقداح الشاى ، وعلى أسماعنا ترسل الأنغام شجية حنوناً ، جادت بها علينا « كعبة الإلهام » ، فانسرح جارى الصديق مغرقاً فى صمت ، يرنو إلى قدحه مليًّا وقد اكفهر وجهه ، وشاهت خلقته ، واستولى عليه تطامن وقنوط ، كأنما هو الشجرة العجفاء أثقلها مر السنين ، فجف

عودها ، وتجعدت قشرتها ، تكاد تتقصف هاوية ، تودع الحياة .

فأمسكت بيده أسأله :

أ أنت بخير ؟

فضغط يدى يهمهم فى لهجة وادعة :

لا تنزعج . . . أنا بخير .

فودعته ، ولجأت إلى بيتى ، برماً بما وعيت من حديث كئيب ، أرمى أباه فى ثورة من غضبى ، بالغفلة والجهالة والبله .

وتوالت أيام .

وظلت نوافذ جارى مغلقة على غير المألوف .

وساورتنى فى شأنه ظنون .

وذات عشية ، جاءتنى ، وأنا جالس إلى المزمار أتدرب عليه ، أصوات موسيقية تجيش بالأنغام فى خشونة وغلظة ، وتجأر بالألحان فى شدة وصلابة ، كأنما هى ضربات المعاول على صخر أصم .

فهرعت إلى النافذة أتشوف وأتكشف ، فصدمت بجارى الصديق فى « كعبة الإلهام » يلوّح بعصا القيادة ، وقد اعتلى

مقعداً ، وأقبل على الدمى تلك الأقزام الخزفية ، كأنما غدت فوق المائدة المستديرة ، عمالقة العازفين على منصة المسرح ، تستجيب إلى تلويحاته فى طواعية ، كلما حرك عصاه ، يضرب بها الهواء على إيقاع الأنغام ، ترددها آلة التسجيل فى أقصى الحجرة ، فإن هى تراخت وشفت ، سكنت إيماءاته ورقت ، وإن اشتدت وعصفت هاج وماج ، والعصا فى مهب الأنغام حائرة راعشة ، تغدو وتروح فى اضطراب كأنها أصيبت بمس محموم .

وبغتة كف جارى الصديق عن التلويح ، تستبد به نوبة من نشيج ، فنحى العصا يقصف ظهرها ، وراغ إلى الدمى الخزفية يبطش بها ، وامتدت يده إلى المصنف الموسيقى يمزقه شر تمزيق ، وتشعثت حركاته ، واضطرب المقعد من تحته ، واختل منه التوازن ، فانبسط على الأرض بعوده السمهرى ، واستقر فى سقطته دون حراك ، يشخب الدم من جرح أصاب جبهته ، على حين ظلت الألحان تتدافع عنيفة صاخبة ، تنكر فى ثورة عارمة ، ما حل بعشيرها ، فى الحياة ، من عسف الجحود والإخفاق .